وتقول الروايات إنه كان يعتزم بناء قصر مواجه لتاج محل ليكون ضريحًا له شخصيًّا، ومقابلًا لضريح زوجته، ولكن مع وجود فارق بينهما، وهو أن الأول ضريح تاج محل من الرخام الأبيض أما ضريحه هو فسيكون باللون الأسود، بحيث يربط بينهما جسر كبير.

شاه جاهان وممتاز محل

الأثر الخالد

في عام 1612 تزوَّجت الشابة الصغيرة أرجو ماند بانو، ووالدها كان شقيقًا لنور جيهان زوجة السلطان، بالشاب شاه جاهان ابن الخامسة عشرة، والذي كان يعرف وقتها باسم الأمير حزام شهاب الدين، والذي صار فيما بعد حاكم إمبراطورية المغول والإمبراطور الخامس لها.

وكان في تقليد المغول النساء المهمَّات في العائلة المالكة يُمنحن أسماء أخرى عند الزواج وفي بعض الأحداث المهمة في حياتهن، وبعد ذلك يشيع الاسم الجديد، ويصير مستخدمًا من قبل الناس عامة، فتغير اسمها إلى ممتاز محل، وقد أنجبت منه 14 طفلًا، وربطت علاقة حب متينة بين الزوجين.

وعلى الرغم من أن هذا الزواج كان الثاني للشاه، إلا أنه كان نابعًا من قصة حب حقيقية وتجربة عاطفية، وكانت ممتاز رفيقة دائمة لزوجها لا تتركه في كل رحلاته وسفرياته وجولاته وزياراته ومهماته العسكرية، بل ومستشارته وصديقته، وكانت الدافع القوي لقيامه بالكثير من أعمال الخير والبر، وخاصة مع الضعفاء والفقراء والمحتاجين.

إلا أن ممتاز محل عاشت لحظات بؤس بسبب الوشايات والدسائس التي تمت داخل القصر، والتي كان هدفها الوشاية بينهما، إلا أن حبهما لم يتأثر بكل هذه المؤامرات، فقد عاش الزوجان شاه جهان وممتاز طوال 19 عامًا من المودة والمحبة حتى كان يضرب بهما المثل، إلا أنه وفي عام 1630 قام الزوج بحشد قواته بكل ما لديه من إمكانيات عسكرية وبشرية، وبدأ حملة عسكرية ضد ابنه والوريث لمملكته وحكمه في منطقة ديكان، وقد شاء القدر أن يمنحه النصر على

التمرد والسيطرة عليه، ومن المعروف أنه كلما ازدادت الانتصارات تزداد المكائد، فقد استطاعت نور جهان زوجة والد الأميرة، أن تدبر مكيدة مخططة بشكل جيد لمحاولة التفريق بينهما حيث أرسلت مبعوث بمهمة خبيثة تمثلت في تدبير لقاء بين الأميرة وبين أحد الطامعين في العرش، لكي يشي بها أحد أعوانه ويقتنع بخيانتها له، وبالفعل تمت المكيدة ونجحت فى التوقيع بينهما، فقرر الزوج الخلاص من زوجته؛ إلا أنه عدل عن ذلك وآثر حبسها عقابًا لها، وطلبت منه أن يفعل بها ما يشاء بشرط أن يستمع إليها وروت له دسائس نور جهان، لكنه استمر في حبسه لها.

وفي أحد الأيام كان شاه جهان في جنوب الهند لوقف تمرَّد بعض الخارجين عن حكم الإمبراطورية، وصله نبأ يؤكد أن زوجته تعاني من آلام وضع غير طبيعية، وبعد أن وصل إليها وشعر بقسوة ما كان منه مقابل الحب والعطف من هذه الزوجة الحانية، بادلها بعبارات الوفاء والإخلاص، ودَّعته بعبارات الحب والتضحية، وماتت على فراش الولادة في العام 1630، فحزن جاهان عليها حزنًا شديدًا، وقرر تخليد ذكراها ببناء قبر عظيم لها أسماه تاج محل، والذي استغرق بناؤه 20 عامًا، وشارك في بنائه أكثر من 20 ألف عامل وألف فيل .

وكان للظروف الحزينة التي أعقبت موت الإمبراطورة أعمق الوقع وأبلغ الأثر في إلهام الإمبراطور لتشييد هذا القصر الكبير الذي أقامه في أكرا عاصمة المغول، ولم يكن غريبًا بناءه في مثل هذه المدينة الجميلة، حيث تنتشر فيها القلاع الجميلة ذات الأحجار الحمراء التي قام ببنائها الأباطرة المغول، وقد كان بناء هذه التحفة المعمارية مشروطًا بتنفيد أربعة أشياء طلبتها ممتاز من زوجها بعد موتها وتعكس جميعها مدى الحب وعمق الشعور التي كانت تكنُّه له، وهي: أن يبني

تاج محل، أن يتزوج بعدها، أن يحسن معاملة أبنائه،أن يقوم بزيارة الضريح في الذكرى السنوية لوفاتها.

ولكن - وللأسف - لم يستطع شاه جهان الوفاء إلا بالوعدين الأول والثاني حيث اعتقل لمدة ثماني سنوات توفي في آخرها في القلعة الحمراء الكبيرة التي تقع أمام تاج محل، وكان ينظر يوميًّا إلى هذا الصرح الخالد ويبكي، لا يبكي على زوال عرشه وخلعه من الحكم بقدر بكائه على وفاة زوجته الغالية التي لم تستطع امرأة سواها أن تمنحه الحب الذي منحته إياه، ولم يستطع أي شيء في العالم أن يعوضه الحنان الذي افتقده بعد وفاتها وهي تضع له ابنه الرابع عشر، ومنذ تلك اللحظة أخذ السلطان على نفسه عهدًا بتخليد ذكراها في أحسن صورة، وقد كان ذلك بالفعل تاج محل يعتبر بحق أبهى وأجمل قصر يعيش قصة حب ووفاء خلَّدها التاريخ.

وتقول الروايات إنه كان يعتزم بناء قصر مواجه لتاج محل ليكون ضريحًا له شخصيًّا، ومقابلًا لضريح زوجته، ولكن مع وجود فارق بينهما، وهو أن الأول ضريح تاج محل من الرخام الأبيض، أما ضريحه هو فسيكون باللون الأسود بحيث يربط بينهما جسر كبير. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ولم يتحقق هذا الحلم؛ إذ قام أحد أبنائه بالحجر عليه واعتقاله بعدما قاد انقلابًا ضده وسيطر على العرش الملكي، وبالتالي قام بسجن والده في قصره المقابل لضريح تاج محل حتى توفي، إلا أنه - وبدوافع إنسانية - اقترح بعض أعوان الإمبراطور الجديد دفنه بجوار زوجته، ليروي هذا الصرح أروع قصص الحب والوفاء والغفران، ويصبح بحق أحد عجائب الدنيا.